طه حسين والفكر اليوناني

من الأفكار المقرّرة لدى أغلبية المستشرقين أن الثقافة العربية في القديم، كانت واقعة تحت تأثير هيمنة الثقافة اليونانية. ومن هذا المنطلق حاولت الدراسات الاستشراقية أن تُفَتِّت ظواهر الفكر العربي إلى جزئيات بكل وسائلها العلمية، وأن تَرُدّها إلى الأصول اليونانية خاصة، وحضارة الآخرين عامة.

وقد تمثّل جيل من اللبراليين المصريين روح الاستشراق، ورأوا أن النهضة العربية الحديثة لا تتحقق إلا بإتباع حضارة الأوربيين، وما الأوربيون إلا حفدة اليونان! وما الحضارة الأوربية الحديثة إلا من ثمرات أولئك الأغارقة اليونانيين!

والحضارة الأوربية الحديثة لا تقنع بأن نعترف بتبعيتنا لها، وبتأثيرها فينا، بل تريد أن نعترف لها أيضا بالتبعية لأرومتها الأولى (اليونان) في الماضي. وهكذا أُثيرتْ مسألة التأثير اليوناني في الثقافة العربية في القديم؛ لتبرير التبعية للثقافة الغربية في العصر الحديث.

وارتبط مشروع د. طه حسين بالثقافة الغربية عامة وبالفكر اليوناني خاصة، وقد أبدى اهتماما خاصا بالتراث اليوناني عامة، وبالتأثير الأرسطي في الفكر العربي على وجه الخصوص.

أولا: لطفي السيد وطه حسين

انجذب د. طه حسين (١٨٨٩ – ١٩٧٣م) في بداية حياته الفكرية إلى شخصية أحمد لطفي السيد (١٨٧٢ – ١٩٦٣م)، واعتبره أستاذا له وأستاذاً لجيله كله. وقال في "حديث الأربعاء":"وأنت تعلم أن الأستاذ لطفي السيد أستاذٌ لي، كما أنه أستاذ للشباب الناهض المُفكر كلِّه".

ولطفي السيد تخرج من مدرسة الحقوق سنة ١٨٩٤م، والنفس المصرية يطحنها فشل الثورة العُرابية واحتلال الإنجليز لمصر، فانضمّ إلى ندوة جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ – ١٨٩٧م) والشيخ محمد عبده (١٨٤٩ – ١٩٠٥م).

وكان لطفي السيد على رأس صفوة المثقفين المصريين بل هو "خلاصة الجيل الماضي بأسره، وتطبيق صحيح لمدرسة الأفغاني وعصره"، على حد قول أحمد حسن الزيات.

كان يستلهم في تفكيره منطلقات الثورة الفرنسية ويستنير بآراء الفكر الليبرالي الأوربي في مجالات السياسة والاقتصاد والاجتماع والثقافة، وتميز فكره بالتفتح على الحضارة الغربية.

وآراء لطفي السيد تُشكّل القاعدة الأساسية لحزب الأمة. ومن خلال لطفي السيد تسرّب الاتجاه الليبرالي إلى كثير من المثقفين المصريين؛ فكان تمجيد العقلانية والحرية والرغبة في التحرر من الاستبداد والتخلف، والدعوة إلى إقامة أنظمة ديمقراطية، والتمرّد على القيم السائدة، والاحتكاك المباشر بالغرب.

ووجد لطفي السيد" أن الحل الأساسي لمشكلة مصر هو الأخذ بجوهر الحضارة الغربية وما فيها من علوم وصناعة وألوان مختلفة من الحضارة المادية، ولا بأس ن يكون هذا سابقا للاستقلال نفسه".

ولما كانت الثقافة اليونانية أصلا للحضارة الغربية الحديثة؛ انصرفت جهود لطفي السيد واهتماماته إلى مسألتين:

أ – تحرير الشخصية المصرية من التقليد والتزمت.

ب – التعريف بفلسفة أرسطو.

وقد أبدى لطفي السيد إعجابا خاصا بفلسفة أرسطو، وأكّد أن الفلسفة العربية ليست شيئا آخر غير فلسفة أرسطو، وبيّن السبب الذي من أجله ينبغي – في نظره – الرجوع إلى أرسطو، فقال:" وكما أن النهضة الأوربية الحديثة عمدتْ إلى درس فلسفة أرسطو من نصوصها الأصلية، فكانت مفتاحا للتفكير العصري الذي أخرج كثيرا من المواهب الفلسفية الحديثة؛ فلا جرم أن نتخذ نحن من فلسفة أرسطو – لا سيما أنها أشد المذاهب المألوفة ، والطريق الأقرب إلى نقل العلم إلى بلادنا وتأقلمه فيها – رجاء أن يُنتج في النهضة الشرقية مثل ما أنتج في النهضة الغربية"(٤).

ولعل أستاذ الجيل كان يبحث عن عقلنة المجتمع المصري، من خلال صاحب المنطق الذي يُشكل خلفية جوهرية في الثقافة الغربية. وهكذا ترجم لطفي السيد خمسةَ كتب لأرسطو إلى العربية؛ وهي: كتاب السياسة، كتاب الكون والفساد، كتاب الطبيعة، وكتابان في الأخلاق؛ أشهرهما: الأخلاق إلى نيقوماخوس، الذي ترجمه عن الفرنسية، وظهر سنة ١٩٢٤م.

وقد اعتبر د. طه حسين ترجمة هذا الكتاب "الترجمة الحـدَث" فـي النهضة العربية، واعتبره شيئا استثنائيا عظيم الخطر، يقول:"لست من الغلو بحيث أقرن الأستاذ لطفي السيد إلى أرسطوطاليس. فأرسـطوطاليس هـو المعلم الأول للإنسانية الخالدة، ولطفي السيد هو المعلم الأول لعصرنا هـذا الذي نحن فيه".

وهكذا انفجرت الهيلينية في الفكر العربي الحديث، وظهـر دعـاة الإغريقية، وبدأت الأساطير اليونانية تتسرب إلى أدبيات العرب في العـصر الحديث.

وهكذا تعلق د. طه حسين بأستاذ الجيل؛ باعتباره رسول للحـضارة الغربية في مصر، وناقلا لأرسطو أحد مصادر الفكر اليوناني.

ثانيا: اهتمام د. طه حسين بالفكر اليوناني

دخل د. طه حسين الجامعة المصرية منذ إنشائها سـنة ١٩٠٨م، ونهل المعارف من أفكار المستشرقين، وأعجب غاية الإعجـاب بأفكـارهم حتى قال:" وكيف تتصور أستاذاً للأدب العربي لا يُلِمُّ ولا يُنتظَرُ أن يُلمَّ، بما انتهى إليه الفرنجة من النتائج العلمية المختلفة، حين درسوا تاريخ الشرق وآدابه ولغاته المختلفة؟! وإنما يُلتَمَسُ العلمُ الآن عند هؤلاء الناس ولا بـد من التماسه عندهم".

وتعود علاقة طه حسين بالفكر اليوناني والروماني إلـى دراسـته بالسربون حيث كان يحضر تاريخ اليونان على "جلـوتن"، وتـاريخ الأدب

الإغريقي على "كروازيت". وإعجاباً منه بالثقافة اليونانية قرر منذ عودته من باريس والتحاقه بالجامعة سنة ١٩١٩م؛ أن يُقرِّبَ أصول الحضارة الغربية من الثقافة العربية؛ فبدأ يُدرِّسُ التاريخ اليوناني القديم إلى جانب تاريخ الرومان، وتعرّض في محاضراته للجذور الحضارية لليونان، وما كان لها من أثر في الدول والأمم، وما كان لتاريخ مصر من علاقة بالتاريخ اليوناني.(وقد نُشرت هذه المحاضرات في صحيفة الجامعة المصرية حين كان د. طه حسين أستاذاً للتاريخ القديم والروماني في الجامعة المصرية، ما بين ١٩١٩ و ١٩٢٥م).

وترجم أثناء التدريس بعض الآثار اليونانية في الأدب والفكر والسياسة.

– ففي سنة ١٩١٩م وضع كتاباً عن "آلهة اليونان"، وقد تناول فيه الظاهرة الدينية عندهم، وطالب في مقدمة الكتاب أن تتمّ العناية باليونانيات وأن تُدرَسَ الدراسة التي تستحقها.

– وفي سنة ١٩٢٠م ظهر له كتاب" صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان"؛ عرض فيه للشعراء المسرحيين اليونان بطريقة تُقرِّبُهم إلى قراء العربية.

– وفي سنة ١٩٢١م ترجم" نظام الأثينيين" لأرسطو، ولاحظ د. علي أومليل أن لهذه الترجمة دلالتين: أولهما أن مخطوط الكتاب عُثِر عليه في مصر مكتوبا على ورق البردي. ويَستَدِلُّ بذلك طه حسين على وجود

صلات قديمة بين مصر واليونان، ومن ثم تتعرّف مصر على أصول الحضارة الغربية، فتربط الصلة بماضيها الحقيقي.

الدلالة الثانية أن مصر كانت مقبلة على حياة سياسية ديمقراطية، فحاول د. طه حسين أن يُعرِّفَ المصريين بأصول الديمقراطية السياسية.

– وفي سنة ١٩٢١م نشر مقال في "مجلة الهلال" عنوانه" مذهب أرسطو في الفلسفة والاجتماع".

– وفي سنة ١٩٢٥م نشر كتابه"قادة الفكر"، ومعظم هؤلاء من فلاسفة اليونان وساستهم ميروس، سقراط، أفلاطون، أرسطو، الإسكندر المقدوني. وقد أصبح الكِتاب مقررا على طلاب المدارس الثانوية؛ توجيهاً لأنظار الشباب إلى قادة الفكر البشري.

جاء في كتاب "قادة الفكر" أن"العقل الإنساني ظهر بمظهريْن مختلفيْن: أحدهما يوناني خالص، وهو الذي انتصر، وهو الذي يُسيطر على الحياة ألإنسانية اليوم، والآخر شرقي انهزم مرات أمام المظهر اليوناني، وهو الآن يُلقي السلاح ويُسلم للمظهر اليوناني تسليما".

– وفي سنة ١٩٢٦م، يُنقل د. طه حسين من كرسي التاريخ القديم إلى كرسي الأدب العربي، وقد اعتبر المستشرق الإنجليزي انتقاله ضربةً لمشروعه الهيليني؛ فقد وجد أن د. طه حسين قد"توقف عن المُضيّ فيما كان مُقدماً عليه من الدراسات القديمة، وكانت نهاية مبكرة تدعو إلى الأسف.

فالمرجو أن لا يكون المثل الذي ضربه الأستاذ في حماسته وتوفره على الدرس قد ذهب سدى في أوساط الجيل الصاعد".

ولا مبرر لهذا الأسف؛ إذ ظلت كتابات د. طه حسين تعبر عن افتتانه باليونان، وإن انتقل إلى تدريس الأدب العربي!

– ففي سنة ١٩٣٣م نشر كتابه"على هامش السيرة"، فلم يسعه إلا أن يذكر اليونان والأوديسا، ويتعرّض في صميم الكتاب إلى آلهة اليونان: أبولو، والمريخ، وأرتميس، وأثينا، وتحدث عن الوثنية وارتباطها باليهودية والنصرانية.

– وفي سنة ١٩٣٨م نشر كتابه"مستقبل الثقافة في مصر"، وقال:"إن التلاميذ يتعلمون في المدارس أن مصر عرفت اليونان منذ عهد بعيد جدا، وأن المستعمرات اليونانية قد أقرّها الفراعنة في مصر قبل الألف الأول قبل المسيح (...) وأن العقل المصري قد اتصل بالعقل اليوناني منذ عصوره الأولى؛ اتصال تعاون وتوافق، وتبادل مستمر منظم للمنافع في الفن والسياسة والاقتصاد".

فمصر دولة يونانية أو كاليونانية، وهي مصدر من مصادر الثقافة اليونانية للعالم القديم،"فلا ينبغي أن يفهم المصري أن بينه وبين الأوربي فرقاً عقليا قويا أو ضعيفا (...) وإنما كانت مصر دائما جزءاً من أوربا؛ في كل ما يتصل بالحياة والثقافة على اختلاف فروعها وألوانها".

ويُقرر د. طه حسين في كتابه هذا أن عناصر العقل العربي كلها، شأن العقل الأوربي؛ ترجع إلى أصول ثلاثة: حضارة اليونان وما فيها من

أدب وفلسفة وفن، وحضارة الرومان وما فيها من سياسية وفقه، والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير".

وآمن أشد الإيمان وأعمقه بأن مصر لن تظفر بالتعلم الجامعي الصحيح إلا إذا عنيتْ باللغتيْن اليونانية واللاتينية.

ثالثا: د. طه حسين وأرسطو

لقد ظل الفكر اليوناني تتردّد أصداؤُه في كتابات د. طه حسين، كما ظهر افتتانه بأرسطو بشكل خاص. وقد ذكر في ترحيبه بظهور "كتاب الأخلاق" لأرسطو؛ الذي ترجمه لطفي السيد أنه لا يرى بعض الفرنسيين مبالغا حين قال:"لو أن هذه الحضارة الحديثة أُزيلتْ وأُريد تأسيسُ حضارة جديدة لكانت فلسفة أرسطوطاليس أساسا لهذه الحضارة الحديثة".

بل يُفصح د. طه حسين عن غايته في نهاية ترحيبه فيقول:"لقد كانت فلسفة أرسطوطاليس أساس النهضة الغربية الأولى، وأساس النهضة الأوربية في العصر الحديث، ويجب أن تكون أساس النهضة العلمية في مصر الحديثة"(١٥). واقترح في نهاية مقاله أن يكون كتاب الأخلاق لأرسطو موضوعَ درس مفصّل دقيق في الأزهر الشريف والمدارس العليا غير الفنية.

وفي بحثه"تمهيد في البيان العربي من الجاحظ إلى عبد القاهر"، الذي قدمه للمؤتمر الثاني عشر لجماعة المستشرقين (عُقد بليدن في سبتمبر ١٩٣١م)؛ قرَّرَ أن البيان العربي منذ نشأته إلى أوان نضجه،"كان

في جميع أطواره وثيق الصلة بالفلسفة اليونانية أولا، وبالبياني اليوناني أخيراً، وإذاً لا يكون أرسطو المعلم الأول للمسلمين في الفلسفة وحدها، ولكنه إلى جانب ذلك معلمهم الأول في علم البيان".

وفي هذا البحث فجّر قضية التأثير اليوناني في البيان العربي، وجعل هذا البيان من مرحلته تأسيسه إلى أوان نضجه خاضعا للأفكار الأرسطية كما جاءت في كتاب الخطابة.

فهو يرى أن المعتزلة بفضل تضلعهم في الفلسفة اليونانية كانوا من مؤسسي البيان العربي؛ إذ كانوا أهل جدل، اتصلوا بالمنطق كما اتصلوا بالخطابة، بل إن المعتزلة أثروا – في نظره – أيضا في الأدب العربي، فظهر تأثير الهيلينية واضحا في نتاج الشعراء ونتاج الكتاب.

والجاحظ مؤسس البيان العربي من متكلمي المعتزلة! فيكون البيان العربي متأثرا في نشأته الأولى باليونان!

أما عبد القاهر الجرجاني، الذي يمثل مرحلة النضج في البلاغة العربية، فلم يكن في رأي د. طه حسين إلا فيلسوفا يُجيد شرح أرسطو والتعليق عليه، واعتَبر كتاب"دلائل الإعجاز" جهدا صادقا خصبا في التأليف بين قواعد النحو العربي وبين آراء أرسطو العامة في الجملة والأسلوب والفصول.

ونظراً لما لهذا البحث من تأثير في أنظار مؤرخي النقد والبلاغة العربيين، سأعود إليه في مناسبة قادمة بحول الله تعالى.

الخلاصة :

أن د. طه حسين رسَّخَ مقولة التأثير في الثقافة العربيـــة، وجعـــل البيان العربي منذ نشأته إلى أوان نضجه خاضعاً للتأثير الأرسطي، وجعـــل العلم يُلتَمَسُ من لدن المستشرقين. وقرّر أن العقلية المصرية أقـــرب إلـــى العقلية الغربية منها إلى العقلة العربية. وهذه الآراء هيّأتْ النفسية العربية للإحباط، واستلذاذ التبعية، والذوبان في الحـــضارة الغربيـــة، والاســـتهانة بالحضارة الإسلامية العربية!